فقه التَّعايُش عند ابن حزم

The Jurisprudence of Coexistence According to Ibn Hazm

عبد الحميد عبد المنعم مدكور *
Drmadkour42@gmail.com

الملخص

ابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، وُلد في آخر يوم من شهر رمضان من سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (= 944م).

سكن هو وآباؤه قرطبة، حاضرة الأندلس، ونالوا فيها جاهًا عريضًا، كما يقول صاعد: فكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر، ثم لابنه من بعده، وكان ابنه الفقيه وزيرًا لعبد الرحمن المستظهر بالله بن هشام

عضَّته السياسية بأنيابها، وأدت إلى دخوله السجن، فنبذها، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، فعنى بعلم المنطق، وألَّف فيه كتاب التقريب لحدود المنطق وأوغل – بعد هذا – في الاستكثار من علوم الشريعة، حتى نال منها ما لم ينلْه أحد قط بالأندلس قبله، وصنف مصنفات كثيرة العدد، شريفة المقصد. في فنون كثيرة تدل على ثقافة شاملة عميقة متنوعة المشارب، جمعت بين الفقه والأصول والحديث والتاريخ والأنساب والملل والنحل والشعر والأدب والنحو واللغة والرد على المخالفين في المذاهب الفقهية والاعتقادية والأديان، ولم

* الأمين العامّ لمجمع اللّغة العربيّة، وأستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

يمنعه هذا كله أن يكتب في الحب، فكتب فيه كتابه: "طوق الحمامة"، وبلغت مؤلفاته كما يقول معاصروه: نحو أربعمائة مجلدٍ تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، ويعلق صاعد على هذا بقوله: "وهذا شيء ما علمناه في أحد ممن كان في دولة الإسلام قبله، إلا لأبي جعفر ابن جرير الطبري الكبير (310 هـ) فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفًا".

الكلمات المفتاحية: ابن حزم؛ فقه التعايش؛ طوق الحمامة.

Abstract

Ibn Hazm is Abu Muhammad Ali bin Ahmed bin Saeed bin Hazm who was born on the last day of the month of Ramadan in the year three hundred and eighty-four (= 944 AD).

He and his parents lived in Cordoba, the metropolis of Andalusia, and attained great prestige there, according to Sa'id. His father was one of the great ministers of al-Mansur Muhammad ibn Abi Amer, then his son after him, and his son al-Faqih was a minister to Abd al-Rahman al-Mustazhar Billah ibn Hisham.

He was bitten by politics which led to his imprisonment, therefore he rejected it, and accepted the reading of sciences and the restriction of traces and Sunnahs. - In Andalusia, before him, and compiled many works of honorable purpose.

many arts indicate a comprehensive, deep culture of various kinds, combining jurisprudence, origins, hadith, history, genealogy, religion, bees, poetry, literature, grammar, language, and responding to opponents in jurisprudence, belief, and religions. All this did not prevent him from writing in love, so he wrote his book entitled: Tawq al-Hamamah." His books, according to his contemporaries, amounted to about four hundred volumes, comprising close to eighty thousand folios. ewho is a well-established writer in Islam".

Keywords: Ibn Hazm, The jurisprudence of coexistence according, Tawq al-Hamamah.

تمهيد

ابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، وُلد في آخر يوم من شهر رمضان من سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (= 944م)[1].

سكن هو وآباؤه قرطبة، حاضرة الأندلس، ونالوا فيها جاهًا عريضًا، كما يقول صاعد، فكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر، ثم لابنه من بعده، وكان ابنه الفقيه وزيرًا لعبد الرحمن المستظهر بالله بن هشام[2]

عضَّته السياسية بأنيابها، وأدت إلى دخوله السجن، فنبذها، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، فعنى بعلم المنطق، وألَّف فيه كتاب التقريب لحدود المنطق "وأوغل – بعد هذا – في الاستكثار من علوم الشريعة، حتى نال منها ما لم ينلْه أحد – قط – بالأندلس، قبله، وصنف مصنفات كثيرة العدد، شريفة المقصد". في فنون كثيرة تدل على ثقافة شاملة عميقة متنوعة المشارب، جمعت بين فقه والأصول والحديث والتاريخ والأنساب والملل والنحل والشعر والأدب، والنحو واللغة والرد على المخالفين في المذاهب الفقهية، والاعتقادية، والأديان، ولم يمنعه هذا كله أن يكتب في الحب، فكتب فيه كتابه: "طوق الحمامة"، وبلغت مؤلفاته كما يقول معاصروه: نحو أربعمائة مجلدٍ تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، ويعلق صاعد على هذا بقوله: "وهذا شيء ما علمناه في أحد ممن كان في دولة الإسلام قبله، إلا لأبي جعفر ابن جرير الطبري الكبير (310 هـ) فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفًا"[3].

ولم يكن فيما جمعه من المعارف والعلوم ناقلًا، بل كان ذا شخصية علمية أصيلة، يعبر فيها عن رأيه: موافقًا أو مخالفًا، مؤيدًا رأيه بالحجج القوية والبراهين الممحَّصة، مع اتساع في العرض والتحليل والمناقشة والتعقيب والآراء غير المسبوقة في مسائل العلم المتنوعة، وكثيرًا ما أشار المؤرخون له إلى تفرُّده بمعانٍ لم يسبقه إليها أحد، ومن ذلك ما حكاه ابن خلكان في حديثه عن بعض مؤلفاته ومنها: "الإحكام لأصول الأحكام" الذي هو في غاية التقصي وإيراد الحجج، وكتاب "الفِصَل في الملل والأهواء والنحل"، وكتاب: "إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل"، وبيان تناقض ما بأيدهم من ذلك، مما لا يحتمل التأويل. وهذا معنى لم يُسبق إليه، وكتاب "التقريب لحد المنْطق"، والمدخل إليه، بالألفاظ العاميَّة والأمثلة الفقهية، فإنه سلك في بيانه، وإزالة سوء الظن عنه، وتكذيب الممخرقينَ به طريقة لم يسلكها أحد قبله ... وله كتاب صغير سماه: "نقط العروس" جمع فيه كل غريبة نادرة، وهو مفيد جدًّا"[4].

ووُصف – كذلك – بأنه كان حافظًا، عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننًا في علوم جمَّة .... ذا فضائل جمة، وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم ولم يقتصر علمه على العلوم الشرعية ذات التخصصات المتنوعة؛ بل "كان له في الآداب والشعر نَفَس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه"[5].

ومن هذا الشعر:

منـــاي مـــن الـــدّنيا علـــوم أبثّهـــا وأنشـــرها فـــي كـــل بـــادٍ وحاضِـــر
دعـــاءً إلـــى القـــرآن والسّـــنن التـــي تَنَاسَى رجالٌ ذكرها فـي المحاضر

وكان للفقه والأصول حظ كبير في ثقافته العلمية، وقد كان – في أول أمره – على مذهب الإمام الشافعي، مخالفًا بذلك ما كان سائدًا في المغرب والأندلس، الذين كان الغالب عليهما مذهب الإمام مالك بن أنس، وقد ناضل عن هذا المذهب "حتى وُسِم به، ونُسِب إليه، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء"[6].

ولم تكن مخالفته للفقهاء مانعةً له من البحث والتحري والاستقصاء، طلبًا لما يرى أنه الحق، وهو – عندئذٍ – لا يبالي بالخلاف، أيًّا كان القائل به، وفي هذا يقول لمن يعيبونه بأنه: "لا يبالي – فيما يعتقده حقًّا – بمخالفة من خالفه، ولو أنهم جميعُ مَنْ على ظهر الأرض: "فهذه الخصلة – عندي – من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها ... وأنا أوصي بذلك كل من يبلغه كلامي، فلن ينفعه اتباعه الناس في الباطل والفضول، إذا أسخط ربه – تعالى – وغَبَنَ عقله، أو آلم نفسه وجسده، وتكلف مؤونة لا فائدة فيها"[7].

وقد بيَّن ابن حزم أنه لا يتخذ هذا الموقف من الاعتزاز برأيه والثبات عليه، والدفاع عنه، كِبْرًا أو تفاخرًا أو استعلاءً؛ بل إن ذلك يرجع إلى الصبر على مشقات البحث، وطول النظر والتأمل، والحرص على معرفة الأفكار والآراء وتمحيصها قبل تحديد موقفه منها، وهو يشرح هذا قائلًا: "إن الوقوف على الحقائق لا يكون إلا بشدة البحث، وشدةُ البحث لا تكون إلا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال، والنظر في طبائع الأشياء، وسماع حجة كل محتج،

والنظـر فيهـا وتفتيشـها، والإشـراف علـى الـديانات والآراء والنحـل والمـذاهب والاختيـارات واخـتلاف النـاس" ولا بـد لـه – كـذلك – مـن الاطـلاع علـى القرآن ومعانيـه، والحـديث والسير، ومطالعـة الأخبـار القديمـة والحديثـة، والإشراف علـى أقسام البلاد، والوقوف على اللغة والنحو[8]. وهذا الجهد الشاق في التعرف على الآراء وموازنتها يعطي صاحبه الحق في التمسك بها، بحيث لا يتوقع منه أن يتنازل عنها إلا ببرهان أقوى من البراهين التي انتهى إليها.

على أن ابن حزم انتهى – بعد طول النظر – إلى ترك المذهب الشافعي إلى قول أصحاب الظاهر الذي وضعه في المشرق داود بن علي (270 هـ) ومن اتبعه من الفقهاء في المشرق وفي الأندلس .وقد اختاره ابن حزم عن اقتناع جعله يعتمد عليه في الفقه والأصول، وفي العقيدة على حد سواء، وبذل جهده في تأصيله، والدفاع عنه، "وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان بن داود الظاهري وغيره من أهل الظاهر"[9]، ووضع الكتب في بسطه، وثبت عليه إلى أن مضى لسبيله، كما يقول بعض مؤرخيه[10].

وابـن حـزم – كمـا تـدل أقوالـه وأحوالـه – قـوي الاعتـزاز بنفسـه، شـديد الاعتداد برأيه، وإن لم ينل ما يتفق مع ما يرجوه لنفسه من مكانه. وهو يذكر هذا بحزن وفي صراحة ودون مواربة، وها هو يقول من أبيات له:

أنـا الشّـمس فـي جـو العلـوم منيـرة ولكــنَّ عيبــي أن مطلعــيَ الغــرب

ولـو أننـي مـن جانـب الشّـرق طـالعٌ لَجدَّ علـى مـا ضـع مـن ذكريَ النهـب

***

وإن مكانًــا ضــاق عنّــي لضــيَق **علــى أنــه فْسْــخُ مَهَامِــهُ سُــهْب**

وإن رجــالًا ضــيعوني لضُــيَّع **وإن زمانًــا لــم أنــل خَصْــبُهُ جَــدبُ**

ويستشعر ابن حزم ما قد يُوصف به – بسبب هذا الشعر – من اتهام بمدحه لنفسه وتفاخره بعلمه، فيقول معتذرًا:

ولكـنَّ لـي فـي يوسـف خيـرُ أسـوةٍ **وليس على من بالنبيّ ائتسي ذنبُ**

يقول – وقال الحقَّ والصّدقَ: إنني **حفيظ عليهم، ما عَلَى صادق عَتْبُ**

ودفعه هذا الاعتزاز إلى نبْذ التقليد ونفوره منه نفورًا مطلقًا؛ وهو يعلل ذلك بأن التقليد – لغير الرسول صلى الله عليه وسلم – حرام، وأن تقليد الآراء لم يكن – قط – في قرن الصحابة رضي الله عنهم، ولا في قرن التابعين، ولا في قرن تابعي التابعين "وهذه هي القرون الثلاثة التي أثنى النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – عليها، وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم"[(11)].

وهو يبين أن التقليد المذموم هو "تقليد كل إنسان، دون الرسول صلى الله عليه وسلم، فأما الأخذ بما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – فهو ائتمار، لا تقليد"[(12)].

ولا يقتصر ذم التقليد على التقليد في الفروع والأحكام الفقهية، بل إنه –من باب أولى – مذموم في باب العقائد التي هي أصول الدين كله؛ لذلك فالتقليد فيها حرام، واتباع النصَّ فيها فرض واجب[(13)].

وهو لا يترك رأيه واجتهاده لرأي أحد، حتى لو كان من الأئمة الكبار من العلماء، وهو يذكر هذا في سياق ذكر رأي في قضية الاسم والمسمى، وفي الكلام عن أسماء الله تعالى، وكان من القائلين بهذا الرأي الإمام أحمد بن حنبل وأبو زرعة الرازي وغيرهما، لكن ابن حزم يخالفهم الرأي في هذه المسألة قائلًا: "هؤلاء – رضي الله عنهم – وإن كانوا من أهل السنة، ومن أئمتنا فليسوا معصومين من الخطأ، ولا أمرنا الله – عز وجل – بتقليدهم واتباعهم في كل ما قالوه"(14).

بل إنه لا يحاكي محمد بن داود الظاهري، وهو ابن شيخ الظاهرية داود بن علي – فيما ذكره محمد في كتابه "الزهرة"، بل يخالفه فيما كتبه هو في بعض آرائه عن الحب في طوق الحمامة؛ لأنه – كما لاحظ بحق د/ إحسان عباس لا يقبل المحاكاة؛ بل ينفر منها ولأنه "امرؤ لا يؤمن بالتقليد، حسبما يمليه عليه اتجاهه الظاهري"(15).

وكان من الطبيعي أن يفيض ابن حزم – وهو صاحب لسان وبيان – في بيان أصول هذا المذهب الظاهري، وقد كتب في ذلك كتابات كثيرة تمثلت في عديد من كتبه ورسائل في العقيدة والفقه والأصول، ومن أهمها: كتابه الفصل، وكتابه الإحكام في أصول الأحكام، ورسالته في إبطال القياس، وكان مما كتبه لتحقيق هذا المقصد قوله، وهو يعرض أصول مذهب الظاهرية في كتابه الإحكام: "وأصل مذهبنا أن الأخذ بظاهر القرآن والحديث الصحيح حق، ونحن على يقين من أننا مصيبون في ذلك، وفي كل قول أدَّانا إليه أخذنا بظاهر

القرآن والحديث الصحيح، وأن من خالفنا مخطئ، عند الله – عز وجل – ونحن على يقين من ذلك، لا نشكُّ فيه، ولا يمكن خلافه"[16].

وهو يعلل ذلك – في الفصل – بأن: "دين الله – تعالى – ظهر لا باطن فيه، وجَهْر لا سرَّ تحته، كُلُّه برهان لا مسامحة فيه ... ولكل من ادعى للديانة سِّرا وباطنًا فهي دعاوى ومخارق، واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم من الشريعة كلمة... ولا كان عنده – عليه السلام – سر، ولا رمز، ولا باطن، غير ما دعا الناس كلهم إليه"[17]. وبناء على ذلك فالوقوف عند النص فرض[18] ولذلك لا يجوز تعديَّ النص إلا بنص أو إجماع؛ "لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها، والشرائع كلها، والمعقول كله"[19].

ويكرر ابن حزم عند تناوله للمسائل التي اختلف فيها منهج الظاهرية عن منهج غيرهم: أن القرآن واجبٌ أن يُحمل على ظاهره، كذلك كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لم يأت نص في أحدهما، أو إجماع متيقن، أو ضرورة حس على خلاف ظاهره، فيوقف عند ذلك[20].

وأن "جملة الخير كله أن تلزموا ما نصَّ عليكم ربكم تعالى في القرآن بلسان عربي مبين، لم يفرَّط فيه من شيء، تبيانًا لكل شيء، وما صح عن نبيكم صلى الله عليه وسلم برواية الثقات من أئمة أصحاب الحديث – رضي الله عنهم – مسندًا إليه، عليه السلام"[21].

* ويترتب على هذا عدد من النتائج المهمة التي حرص على مراعاتها[22]، منها:

– أنه لا يقول بالتأويل في العقائد أو في الأحكام؛ لأن التأويل خلاف الأخذ بالظاهر: "ونحن لا نقول بالتأويل أصلًا، إلا أن يوجب ذلك إجماع أو ضرورة حس، ولا مزيد ،وإلا فمن ادعى تأويلًا بلا برهان فقد ادعى ما لا يصح، فدعواه باطلة". ومن قال هذا من عند نفسه فقد تقوَّل على الله تعالى، وعلى رسوله – عليه الصلاة والسلام – "إذا لم تأت له حجة خبر، عنه – تعالى – ولا عن نبيه – صلى الله عليه وسلم"[23].

ومدَّعي التأويل – عندئذ– تارك للوحي، مدَّع للغيب، مخالف للرسول، ناقل للغة عن معناها، بغير دليل[24].

- أنه يقول بإبطال كل اجتهاد أدى إلى ما لا نص فيه، أو إلى خلاف النص[25].

- أنه يحصر الإجماع في إجماع الصحابة، دون من سواهم، ثم إنه لا يُسلِّم بأي إجماع بعد ذلك[26].

- أن ما ينتهي في إسناده إلى الصحابي أو التابعي أو إمام دونهما، دون أن يستند إلى نص من الكتاب والسنة أو إجماع من الصحابة لا يؤخذ به عنده؛ لأن الحجة في الكتاب والسنة[27].

- وإن طالع المجتهد أقوال الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم – عصرًا بعد عصر – "ففرض عليه أن ينظر في أقوال العلماء كلها نظرًا واحدًا، ويحكِّم فيها القرآن والسنة، فِلأيِّها حُكِمَ اعتقده وأفتى به، واطَّرح سائرها. وإن لم يجد

شيئًا مما بلغه منها في نص القرآن ولا في نص السنة لم يحل له أن يأخذ بشيء منه، بل عليه أن يأخذ بالنص ... فهذا هو الاجتهاد الصحيح الذي يؤجَر من فعله على كل حال ... وكل ما سُمِّي اجتهادًا من غير ما ذكرنا فهو باطل وإفك، زُيِّن بأن سُمِّيَ اجتهادًا، كما سُمِّي اللديغ سليمًا"[28].

- أن خبر الواحد الصحيح كخبر التواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوب الطاعة ولا فرق[29]، وأنه يفيد العلم، خلافًا لكثير من الأصوليين[30].

- أن القياس – عنده – لا يجوز، استعماله في العقائد ولا في الأحكام؛ لأن القياس كله باطل لا يجوز، وقد "ذهب أصحاب الظاهر إلى إبطال القياس في الدين جملة، وقالوا: لا يجوز الحكم – ألبتة – في شيء من الأشياء كلها – إلا بنص كلام الله تعالى، أو نص كلام النبي صلى الله عليه وسلم، أو بما صح عنه – صلى الله عليه وسلم – من فعلٍ أو إقرارٍ، أو إجماع"[31]. وهو يذكر أن البراهين على إبطال القياس كثيرة جدًّا[32] وهو يتتبع المواضع التي يقال: إن فيها قياسًا ثم يفندها، بل إنه يبطل القياس بالقياس[33].

- أنه لا يأخذ بما ذهب إليه المالكية من الاعتداد بعمل أهل المدينة. وهو يتتبع بعض آراء المالكية في ذلك مبيّنًا المخالفة لنصوص ثابتة، أو لإجماع منقول فيها بلا خلافٍ، بل لمخالفتهم عمر بن الخطاب في نيف وثلاثين قضية من موطأ مالك خاصة، ولمخالفتهم أبا بكر وعثمان وعائشة وابن عمر من الصحابة، ومخالفة سعيد بن المسيب والزُّهْري وسليمان بن يسار وغيرهم من

فقهاء المدينة في كثير من أقوالهم "فإن كان تقليد أهل المدينة واجبًا فمالك مخطئ في خلافه لهؤلاء، فيجب عليهم أن يتركوه إذا خالف من ذكرنا من أهل المدينة"[34]. ثم أورد ابن حزم من أقوال مالك نفسه ما ينهى فيه عن اتباعه في كل قول يقوله. ويعلق ابن حزم على ذلك بقوله: "لو اتبع مقلدوه هذا القول منه لاهتدوا"[35].

**** مواقفه تجاه المخالفين له:**

ولسنا في مقام تأصيل هذه الأصول عنده، أو في مقام تفصيل ردوده على أصحاب الآراء الأخرى فيها من أصحاب المذاهب المختلفة التي كان على علم كبير بها، بل إن ما قصدنا إليه في الفقرات السابقة أن نبين أنه كان حريصًا على بيان مذهبه، لا يصرفه عن ذلك شيء، مهما كان، وهو يمضي في الخلاف والنقد إلى أقصى غاياته، وقد يشتط في النقد إلى حد الهجوم القاسي والنقد اللاذع، وهو يصف بعض خصومه بالجرأة على الدين، وبعظم التدليس والتمويه فيه، وبالمكابرة القبيحة، وبالهذيان، وبالعجائب المدهشة، وبأن احتجاجهم ببعض الآيات يكاد يخرجهم إلى الكفر[36].

وهو يصف بعض خصومه بالكذب والجهل، وبالكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم بالحماقة والزيغ والشذوذ[37] ويقول لأحد المخالفين له: "فما خفاء العلم على الحمير حجة على أهل العلم"[38].

ولا يكتفي ابن حزم بنقد الأفكار والآراء، بل إنه ينتقد مسلك أصحابها بقسوة، وهو يخاطبهم بكلام شديد، يقول مثلًا: "لا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم

الفساق المنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزيّنون لأهل الشر شرهم، المناصرون لهم على فسقهم"[39].

وهو يصف أحد هؤلاء الفقهاء باتباع الهوى فيما يصدره من فتاوى، على الرغم من المنصب الرفيع الذي يتقلده في مقام الإفتاء؛ إذ "لا يقدَّم عليه – في وقتنا هذا – أحد في الفُتيا، يُفتي – بالهوى – للصديق فتيا، وعلى العدو فتيا، ولا يستحي من اختلاف فتاويه، شاهدنا هذا منه عيانًا"[40].

ووصل به الأمر في الهجوم إلى أن يصف بعضهم "بأن أكثرهم لا يقيم الهجاء، ولا يعرف حديثٌ مُرْسَل من مسنَد، ولا ثقّة من ضعيف، ولا حديث النبي صلى الله عليه وسلم من كلام كعب الأحبار ... ولا يفرقون بين رأي ورواية، وأنهم لا يدرون ما يقولون"[41].

* ولم ينجُ المتكلمون من هجوم ابن حزم عليهم، وقد نقد علم الكلام من حيث إخفاق ابن حزم عليهم، وقد نقد علم الكلام من حيث إخفاقُه في الغاية التي نشأ من أجلها، وهي الدفاع عن العقيدة الإسلامية، ضد خصومها من الملاحدة والثنوية وأتباع العقائد الأخرى ممن هاجموا العقدية الإسلامية، ويرى ابن حزم أن المتكلمين لم يفلحوا في تحقيق هذا الهدف.

ويذكر ابن حزم إنه سمع من بعض إخوانه كلامًا قال فيه له: "أسألك بالله، هل بلغك أن أحدًا أسلم على يديْ متكلم من هؤلاء المتكلمين واهتدى على أيديهم من ضلالة ..." ويجيب ابن جزم قائلًا: "فوالله يا أخي ما وجدت لقوله

جوابًا، بل ما وجدتهم أحدث الله تعالى على أيديهم إلا الفرقة والشتات والتخاذل وافتراق الكلمة ... وتكفير المسلمين بعضهم بعضًا، وهذا أمر مشاهد"[42].

ولا يكتفي ابن حزم بنقد المتكلمين من هذه الزاوية، بل إن نقده يمتد إلى نقد منهجهم ، حيث يصفه بالسفسطة والتخليط والاضطراب والتناقض، وبأنهم أبعد الناس عن المجيء ببرهانٍ حقٍّ يؤدي إلى اليقين[43]، ويذكر ابن حزم أنه لا يقول ذلك عن سماع، بل عن خبرة ودراية بهذا العلم وأدلته: "إني – والحمد لله لست بمبخوس الحظ من هذا العلم، أعني علم أهل الكلام وطريقتهم في الاستدلال، فيظن ظانٌّ أني إنما قلت ما قلت عداوةً لعلمٍ جَهلتُه، لا، ولكن الحق لا يجوز أن يُتعدَّى"[44].

وقد تتبع آراء بعض الفرق الكلامية في سياق عرضه لآرائه في أصول العقيدة، وردَّ عليها ردًّا مفصلًا، استغرق أكثر كتابه الفصل، بعد الجزء الذي خصصه منه للحديث عن عقائد أهل الكتاب وكتبهم، والقارئ لكتابه يلحظ في كل قضية من القضايا صورًا من هذا النقد التفصيلي الذي توصل إليه من منظور انتسابه إلى أهل السنة[45]، وقد خص الأشاعرة بكثير من النقد المبني على نسبة بعض الآراء إليهم دون تثبت، وقد كان المذهب الأشعري هو السائد في المغرب والأندلس في عصر ابن حزم وما بعده، وقد أدرج الأشاعرة ضمن فرقة المرجئة لقولهم في الإيمان، وذكر ابن حزم أنه أوضح شُنَعَ هذه الفرق في كتاب أسماه "النصائح المنجية، من الفضائح المخزية، والقبائح المُرْدية من أقوال أهل البدع من الفرق الأربع: المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيع"[46]. وخص

بعض أئمة الأشاعرة بالمزيد من النقد، وكان منهم الأشعري وابن فورك والباقلاني[47] ثم اختص بنقده طوائف ممن تَسَمَّوْا بالإسلام، وإن كان جميع فرق الإسلام قد أجمعوا على أنهم غير مسلمين، وذكر من هؤلاء طوائف من الخوارج والمعتزلة والمرجئة والشيعة الباطنية المغرقين في التأويل. وجاء في نقده لهم أنهم لا يتعلقون بحجة أصلًا، وأنه ليس لديهم إلا القِحة والمجاهرة بالكذب، وأن جميع فرق الإسلام متبرئة منهم، مكفرة لهم، مجمعون على أنهم على غير الإسلام[48].

* ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نتتبع ما تحدث به ابن حزم عن كتب أهل الكتاب وما وقع فيها من تحريف وتبديل يُخرجها عن أصلها الذي نزلت به على أنبيائهم، ولا سيما موسى عليه السلام، وقد وصف هؤلاء الذين كتبوا الكتاب بأيديهم ثم نسبوه إلى الله تعالى وأنبيائه بأوصاف شديدة وردت في تعليقاته على هذه الكتب التي تحدث عنها سفرًا سفرًا، وكان كلَّما وجد فيها أمرًا لا يصح صدوره عن الله تعالى أو عن أنبيائه عليهم السلام تناول هؤلاء الذين فعلوا ذلك بالذَّم والهجاء، وقد وصفهم بالكذب الفاحش والنذالة وقلة الحياء، وبالهوس البارد، والجهل المفرط، والحمق وادعاء المُحَال[49]، ووصف أحدهم بأنه ساقط أراد الخروج من مزبلة فوقع في كثيف عذرة"[50]. وبأن كلام بعضهم: "مضحكة تسلِّي الثكالى، وترد الأحزان"[51].

* ولا يقتصر هجوم ابن حزم، ونقده الحاد على الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين على اختلاف طوائفهم، بل إنه يوجه أسْهُمًا نافذة من كنانته الملأى بالسهام إلى حكام عصره الذين تفرقوا شيعًا وأحزابًا، واعتدوا على حرمات

المسلمين وأموالهم وتحالفوا مع عدوِّهم، وناصروه على إخوانهم، وكان مما ذكره أن "كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أوَّلها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساعٍ في الأرض بفسادٍ، للذي ترونه – عيانًا – من شَنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك مَن ضارَّهم ... ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلِّطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام"[52].

وهو يشكو إلى الله تعالى – في سياق رده على ابن النغريلة اليهودي – تَشَاغُلَ أهل الممالك من أهل الملة الإسلامية بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور سيتركونها عن عمارة شريعتهم، وبجمع الأموال عن حماية ملتهم، حتى تطاول غير المسلمين على الإسلام، وانطلقت ألسنتهم بالذمة له والعدوان عليه[53]، وقد حذَّر هؤلاء من نقمة الله عليهم إذا استمروا على مخالطة غير المسلمين، ونصرتهم لهم على حساب المسلمين، وأنهم سيكونون – عندئذ – مستحقين لأن يحيق الله بهم ما أحاق بهؤلاء الذين استحقوا من الله في كتابه الذلة والمسكنة والهوان والصَّغار والخزي في الدنيا، فضلًا عن العذاب الأليم في الاخرة[54].

وقد وصف بعض هؤلاء بضربهم ما يشبه الجزية على المسلمين، وإباحتهم ببيع الخمر، وأنهم بهذا ينقضُون عرى الإسلام عروة عروة، وهو يقسم بالله إنهم: "لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى، فيمكنونهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم، ورجالُهم

يحملونهم أسارى إلى بلادهم ... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا، فأخلوها من الإسلام، وعمروها بالنواقيس. لَعَنَ اللهُ جميعهم، وسلَّط عليهم سيفًا من سيوفه"[55].

وهكذا وقف ابن حزم ممن خالفوا الرأي في الفقه والعقيدة والدين والسياسة موقفًا شديدًا يتسم بالعنف والحدة في كثير من الأحيان. وقد أشار بعض مؤرخيه من المغاربة والمشارقة إلى تلك الحدة التي أصبحت مقرونة به في كتابتهم عنه.

فأبو العباس أحمد بن العَرِيف الصوفي (536 هـ) يقول عنه: "كان لسان ابن حزم ... وسيفُ الحجاج بن يوسف شقيقين" ويعلل ابن خلكان ذلك بقوله: "إنما قال ذلك؛ لأن ابن حزم كان كثير الوقوع في الأئمة المتقدمين والمتأخرين، ولم يكد يسلم منه أحد"[56].

وجاء في ترجمته في كتاب "المُغرب في حُلى المغرب "أنه "كان يجادل عن علمه هذا"[57] من خالفه، على استرسال في طباعة ... فلم يك يُلَطِّف بما عنده بتعريض، ولا يزفُّه بتدريج؛ بل يصكُّ معارضيه صكَّ الجندل، وينشقه أحر من الخردل"[58].

ويصفه ابن كثير بمثل ذلك عندما قال عنه: "وكان ابن حزم كثير الوقيعة في العلماء بلسانه وقلمه، فأورثه ذلك حقدًا في قلوب أهل زمانه"[59].

وقال عنه ابن خلدون: "وتعرض لكثير من أئمة المسلمين، فَنَقِم الناس ذلك عليه، وأوسعوا مذهبه استهجانًا وإنكارًا وتلقوا كتبه بالإغفال، حتى إنها ليحظر بيعها في الأسواق، وربما تمزَّق في بعض الأحيان"[60]. ثم تكتمل الحلقة

بكراهة الحكام له، وإبعادهم له عن مجالسهم ومطاردته حتى استقر بقريته التي مات بها[61].

وكان لهذا أثر في إحساسه بالضيق والمرارة والظلم، وفي شعوره بعدم التقدير لكفاءته وعلمه، وكان يزيده أسًى أن يزهد الناس في علمه، ويصرفوا طلاب العلم عن التلقي عنه، ولكنه كان يسلِّي نفسه ويخفف عنها بأن ذلك أمر واقع يعبِّر عنه المثل السائر: أزهد الناس في عالمٍ أَهْلُهُ. ولقد لقي الأنبياء من أقوامهم ما لقوا من الإيذاء والمعاندة، ووقع من ذلك كثير من الأذى للرسول صلى الله عليه وسلم، غير أنه يخص الأندلس بنصيب كبير من غمط العلماء حقوقهم، وغضِّهم من مكانتهم، "فإنها مِنْ حَسَدِ أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به " واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته ... بأضعاف ما في سائر البلاد، إن أجاد قالوا: سارق مغير، ومنتحل مدَّع، وإن توسط قالوا: غث بارد، وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السَّبق قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلَّم؟ وفي أي زمان قرأ، ولأُمه الهَبَل ... وربما نُحِلَ ما لم يَقُل، وطوِّق ما لم يتقلد ، ولا اعتقدهُ قلبه ... فإن تعرض لتأليف غُمِزَ ولمز ... واستُشنِع هيِّن سقطه، وذهبت محاسنه، وسُيرت فضائله[62].

وقد اجتهد ابن حزم في رياضة نفسه على تحمل ما لقي من التجاهل والاستغناء عن علمه، وانصراف الناس عن مجلسه، وحاول أن يقنع نفسه بأن في ذلك كله خيرًا له؛ لأن مخالطة الناس لا تخلو من مخاطر، ولا يَسْلم صاحبها من شرور، وفي ذلك يقول: من جالس الناس لم يعدم همًّا يؤلم نفسه، وإنَما يندم

عليه في معاده، وغيظًا ينضج كبده، وذلًّا ينكّس همته، فما الظن – بعد – بمن خالطهم وداخلهم ... والعز والراحة والسرور والسلام في الانفراد عنهم ..."[63].

ثم أوضح أن في مجالسة الناس عيبين ينبغي أن يكونا من أسباب التنفير منها؛ أحدهما: أن الإنسان يبوح – عند أنسه بالمجالسة – بأسرار قد تكون مهلكة أو قاتلة، ولولا المجالسة لم يَبُحْ بها، والثاني: أنها تؤدي إلى مواقعة أمور قد تكون مهلكة له في الآخرة ومن ثم "فلا سبيل إلى السلامة من هاتين البليتين إلا بالانفراد عن المجالسة جملة"[64].

وقد وصل الأمر بابن حزم – بسبب هذا الذي عاناه من أذى الناس – أن يحذِّر بشدة من المخالطة، فإذا ما اضطر الإنسان إليها فليلزم اليقظة والحذر ممن يخالطه حَذَره من عدوٍّ لا يتوقع منه إلا الغدْر والإيذاء وسوء المعاملة "فإن سلم من ذلك فلله الحمد، وإن كانت الأخرى أُلفِيَ متأهبًا ولم يمت همًّا"[65].

ولعل هذه النظرة المتشائمة إلى الناس، وسوء الظن بهم، وتوقع الشر منهم، حتى لو أحسن إليهم[66] كانت ثمرة لتجارب قاسية تعرض لها ابن حزم، فقد تعرض للاضطهاد والتضييق والتهمة والسجن والغربة والتنقل في البلاد، لكن حبائل السياسة أخذته إلى السجون، ومواقف العلماء طاردته وضيقت عليه، واتهمه بعضهم بأنه مفتون جاهل أو متجاهل، بل اتهمه بخبث السريرة، وأنه قليل الدين ضعيف العقل، قليل التمييز والتحصيل "بل يدعو عليه بأن يريح الله العباد والبلاد منه"[67].

وتضافرت عليه هذه الظروف والأسباب كلها لتملأ نفسه بمشاعر التحدي والمواجهة والصلابة، على الرغم من قوة الخصوم وشدتهم وكثرتهم، ولكنها جمعت – إلى ذلك – قدرًا لا بأس به من الحزن والأسى، ويعبر أسين بلاثيوس عن ذلك قائلًا: "إن ابن حزم قد عاين من ألوان الظلم ما أنضب معين الرقة واللين في نفسه، وشاهد من مساءات الفوضى السياسية ... ما نفَّر نفسه، وأُوذي في نفسه وكرامته بما لقي من الاضطهاد، ورأى الناس أجمعين ينكرون قدره ويتجهمون له، ويقاطعون مذهبه الديني، فاستقر رأيه على أن يعتزل الدنيا والناس ... وذلك بعد أن صادر المعتمد بن عباد كتبه وأحرقها"[68].

**** ابن حزم وفقه التَّعايُش:**

وعندئذ يبرز السؤال الكبير، الذي يمثل المشكلة الرئيسية أو الجوهرية لهذا البحث، وهذا السؤال هو أنه: إذا كانت الأحوال النفسية، والظروف التي أحاطت به على هذا النحو الذي سبقت الإشارة إليه، فهل لنا أن نتوقع أن يوجد لديه ما يمكن أن يطلق عليه فقه التَّعايُش؟ وهل ستسهم أفكاره ومواقفه – في هذا المجال – بنصيب معقول أو مقبول، بحيث يمكن إدراجه تحت هذا العنوان؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه في الصفحات التالية:

ويمكن القول – بادئ ذي بدء – إن هذه الأفكار التي نبحث عنها للإجابة عن هذه التساؤلات لن تكون بارزة في كتبه التي يغلب عليها الطابع الجدلي مثل كتاب الفصل، ولا في كتبه التي يعبِّر فيها عن مذهبه الفقهي والأصولي ككتاب الإحكام، ولا في الرسائل التي يردُّ فيها على مخالفيه في

العقيدة أو في الفقه أو في بعض التوجهات الفكرية التي كانت موضع انتقاد معاصريه، كانشغاله بالمنطق ومحاولة تقريبه للمسلمين، أو كبعض آرائه المتصلة بالغناء والموسيقى ونحو ذلك من المسائل التي كانت مثار جدل بينه وبين معاصريه من العلماء.إننا لن نجد في هذه الكتب وأمثالها ما نبحث عنه، إلا شيئًا قليلًا يأتي في ثنايا تقريره وتأصيله لبعض القواعد والمبادئ التي كان يصدر عنها ويحتكم إليها، ويعرضها على مخالفيه في الرأي، حتى تكون موضع اعتبار عند نظرهم فيما يخالفهم فيه، ولعل كثيرًا مما كان يعرضه في هذا المقام كان ذا طابع معرفي أو أخلاقي، وقد كان يمثل – لديه – دوافع أو موانع تحكم نظره إلى ما كان يعالجه من مسائل وقضايا.

أما الذي تتجلى فيه آراؤه المتصلة بالتَّعايُش – على نحو بارز – فهو كتبه ورسائله التي تتصل بالجانب النفسي الوجداني من حياته، أو تلك التي كتبها بعد أن عركته الأيام، وصهرته الأحداث فأسبغت عليه نوعًا من الحكمة والاتزان والإنصاف، وألقت عليه ظلًّا من الهدوء والرفق والسكينة، وخلَّصته من مشاعر العناد، والرغبة في إثبات الذات، والتغلب على الخصوم، ونَصْب الأدلة والبراهين التي تلزمهم بالاعتراف بنبوغه وعلمه، وصحة آرائه وأفكاره التي أصر عليها، وأعلن تمسكه بها، حتى وإن خالفه الناس أجمعون.

* ولعلنا – قبل أن نتحدث عن بعض آرائه التي تندرج تحت فقه التَّعايُش – نشير إلى بعض مواقفه التي يظهر فيها هذا الميل واضحًا جليًّا.

اهتم ابن حزم – اهتمامًا بالغًا – بدراسة الأديان، وكان له في دراسة العهد القديم والعهد الجديد جهد معروف، وقد تصدَّى – بقوَّة – للرد على من أساءوا إلى الإسلام عمومًا، وإلى القرآن على وجه الخصوص، وقد كتب بعضهم ما أسماه "تناقض القرآن" وكان ممن أسهموا – في هذا الباب – ابن النغريلة، فرد عليه ابن حزم ردًّا تفصيليًّا في رسالة مستقلة[69].

وتناوله كذلك بالرد في كتاب الفصل عند ذكره لبعض مناظراته معه، وهو يصفه بأنه أعلمهم وأجدلهم[70].

غير أن ذلك لم يدفعه إلى كراهته لليهود عمومًا؛ لأنهم أهل الكتاب، وقد أمر الله تعالى في كتابه بِبِرِّهم وبِرِّ أمثالهم والإقساط إليهم، ما داموا لم يقاتلوا المسلمين في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم[71]. لذلك لم يكن بينه وبينهم قطيعة؛ إلا لمن أساء إلى الإسلام منهم، وقد عرف شيئًا من أحوالهم بالمجاورة والمشاهدة، وكان يسأل بعض علمائهم ومُقَدِّميهم عما يتوقف فيه، ونراه – أحيانًا – يجلس في دكان طبيب إسرائيلي منهم، كان مشهورًا بالفراسة[72].

* ولا يكتفي ابن حزم بالمخالطة والمجالسة؛ بل إنه يضع لنفسه مبادئ أخلاقية تحكم هذه العلاقة، ويتضح شيء من ذلك في قوله: "ثِقْ بالمتدين، وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخفَّ، وإن أظهر أنه على دينك. من استخف بحرمات الله – تعالى – فلا تأمنه على شيء تشفق عليه"[73]. وليس بغريب أن يتحدث ابن حزم عن أثر الدين، والتدين في صلاح الأخلاق وكمالها، ومن ثم

وجدناه يبين علاقة الدين بالمروءة التي تجمع عددًا من الفضائل ففيها صدق، وكرم ونجدة، وترفُّع عن الصغائر، وفي هذا يقول: "لا مروءة لمن لا دين له"[74].

وإذا كان بعض الناس قد يستحل الكذب على خصمة، لا سيما إن كان على غير دينه، فإن ابن حزم يقوله له: "فاعلموا أننا لا نستحل ما يستحله من لا خير فيه من تقويل أحَد ما لم يقله نصًّا، وإن آل قوله إليه؛ إذ قد لا يلزم ما ينتجه قوله ... فاعلموا أن تقويل القائل – كافرًا كان أو مبتدعًا أو مخطئًا – ما لم يقله، نصًّا كذبٌ عليه، ولا يحل الكذب على أحد"[75].

* ومن المعلوم أن ابن حزم قد خالف المذهب الفقهي السائد في المغرب والأندلس وهو مذهب الإمام مالك – رضي الله عنه – فقد كان أولًا شافعيًّا، ثم أصبح ظاهريًّا. وكان شديدًا في حديثه عن معارضيه حتى لقد وُصِف بأنه كان يصكُّهم صك الجندل[76] ولكن ذلك لم يصل به إلى النيل من مقام الإمام مالك نفسه، بل إنه برأه من بعض ما نسبه إليه بعض أتباعه في المذهب من كتمان بعض العلم، ثم قال عنه: "بل كان – عندنا – أحدَ الأئمة الناصحين لهذه الملة" ولكنه ليس بمعصوم، إذ ليس هناك معصوم بعد النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد أصاب أحيانًا، وأخطأ أحيانًا، ونال حظه من التوفيق فيما أصاب فيه، وحظه من عدم التوفيق فيما أخطأ فيه، شأنه في ذلك شأن غيره من العلماء المجتهدين"، وإذا كان الإمام مالك موصوفًا بالعلم والورع فهذه "صفته عندنا، ونحن على اتباع روايته ورواية غيره من العدول؛ لأنه عدل، وقد أُمِرْنا بقبول خبر العدل ... وهو أول الناس ينهي عن تقليده"[77].

وقد حرص ابن حزم في نهيه عن التقليد المطلق للأئمة على بيان "أن أبا حنيفة" في نهيه عن التقليد المطلق للأئمة على بيان "أن أبا حنيفة ومالكًا – رحمهما الله – اجتهدا، وكانا ممن أمر بالاجتهاد ... وَجَرَيَا على طريق من سلف في ترك التقليد، فأُجِرَا فيما أصابا فيه أجرين، وأُجِرَا فيما أخطأ فيه أجرًا واحدًا، وسَلِما من الوِزْر في ذلك على كل حال" وهذا هو شأن الشافعي الذي جاء بعدهما، بل هو حال كل عالم ومتعلم غيرهما[78].

وعلى الرغم من أخْذ ابن حزم بالظاهر من نصوص القرآن والسنة دون لجوء إلى التأويل إلا في أضيق الحدود، وقوله: إن هذا هو الحق الذي لا يصح خلافه أو المنازعة فيه، على الرغم من هذا، ومما يترتب عليه من تخطئة أتْباع المذاهب الفقهية المشهورة كان ابن حزم حريصًا على عدم المغالاة في تلك التخطئة؛ لذلك فرَّق بين إنكار الظاهر، وتأويله، فهما لا يستويان، وفي هذا يقول: "وإنما يكفر من أنكر تنزيل القرآن، أو تنزيل بعضه فقط، وأما من أنكر الأخذ بظاهره، وتأول في آياته تأويلات لا يخرج بها عن الإجماع فإننا لا نكفِّره، ما لم تقم الحجة عليه، كما لا نكفِّر مَنْ خَالَفَنَا في قبول خبر الواحد، ما لم تقم الحجة عليه"[79].

وهو يؤكد هذا في حديثه عن الإجماع الذي لا يكون مقبولًا إلا أن يكون على نص من قرآن وسنة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وأنه ليس بصحيح ولا مقبول إذا كان إجماعًا لا نص فيه، فمثل هذا الإجماع باطل، وإن كان هناك من الفقهاء من يقول به، والقائل بالإجماع المستند إلى النص مأجور

مرتين، مرة على اجتهاده وطلبه الحق، ومرة ثانية على قوله بالحق واتباعه له "ويكون من خالف ذلك النص، غير مستجيز لخلافه، لكن قاصدًا إلى الحق مخطئًا، مأجورًا واحدًا عل طلبه للحق، مرفوعًا عنه الإثم، إذا لم يعمد له"[80].

وهكذا يتخفف ابن حزم من حدته وشدته إلى حد كبير، ولا شك أن لهجته في هذه النصوص وأمثالها تختلف عن أحكامه القاسية التي أصدرها على الفقهاء في حومة جداله معهم على نحو ما أشرنا إليه من قبل[81].

ولعل ابن حزم كان يستحضر في نفسه ما ينبغي أن يكون عليه أهل العلم – حتى وإن اختلفوا – من آداب وأخلاق تطبع سلوكهم، وتحكم اختلافاتهم، وإلا كان علمهم كالشجرة العقيم الجرداء، التي لا ثمرة لها ولا ظِلّ، وتزداد المحنة إذا كان علمهم علمًا شرعيًّا يُتوقع منه أن يكون له تأثير محسوس في أخلاق صاحبه وسلوكه، وقد كان ابن حزم حريصًا على هذا الجانب الخلقي في علاقاته ومعاملاته، بل إنه كان حريصًا عليه حتى في عاطفته ومشاعره التي يجب أن يُراعى فيها سَرِيُّ النعوت ونبيلُ الصفات، ولذلك وجدناه في طوق الحمامة يتحدث عن كراهيته للغدر، وحرصه على الوفاء، والتعفُّف، والبعد عن كل ذميم من الأخلاق التي تغضب الله تعالى، وتضع من قدر صاحبها؛ لأنه لا يقع فيها إلا أهل الخسة والدناءة، ولذلك حذَّر من قبح المعصية، وثقل العقوبة، وأليم الحساب في دار الجزاء[82]، وقد تحدث عن نفسه فقال: "... يعلم الله – وكفى به عليمًا – أني بريء الساحة، سليم الأديم، ... نقي الحُجزَة"[83]. وهو يذكر في هذا المقام أحد شيوخه الذين كان لهم "تقدم في الصلاح والنسك الصحيح، وفي

الزهد في الدنيا، والاجتهاد للآخرة ... وما رأيت مثله – جملةً – علمًا وعملًا، ودنيا وورعًا، فنفعني الله به كثيرًا، وعلمت موقع الإساءة، وقبح المعاصي"[84].

* ويمكن القول إن ابن حزم قد وضع لنفسه منهجًا يتضمن عددًا من القيم الخلقية التي ينطلق فيها ويحتكم إليها في جداله الذي شغل مساحة كبرى من جهوده، بسبب اختلاف انتماءاته العلمية والفكرية مع البيئة الثقافية التي تحيط به؛ إذ هو في الاعتقاد يعلن انتسابه إلى أهل السنة الذين هم "أهل الحق، ومن عداهم فأهل البدعة"، وهؤلاء هم "الصحابة – رضي الله عنهم –، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين، رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث، ومن اتبعهم من الفقهاء، جيلًا فجيلًا، إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها"[85]. ومن شأن هذا الانتساب أن يجعله على خلاف كبير مع سائر الفرق الكلامية من الشيعة والخوارج المعتزلة والأشاعرة، وقد رد على هذه الفرق جميعها في كتب كثيرة، ولا سيما في الفِصل وما يجري مجراه.

ثم هو ينتسب في الفقه والأصول إلى الظاهرية – كما سبق القول – وهذا يجعله في خلاف شديد مع أتباع المذاهب الفقهية فيما وضعوه من أصول، وما قعدَّوه من قواعد، وما تناولوه من فروع الأحكام.

وقد كان ابن حزم أحد الدعاة الكبار السابقين في دعوتهم إلى ادخال المنطق في جملة العلوم الإسلامية، والانتفاع به في إحكام الأدلة، والبراهين، وضبط الأفكار وجودة صياغتها، وكان يرى في عمله هذا نوعًا من الجهاد العلمي الذي يرجو به نفع المسلمين في علومهم المختلفة وهو يذكر في مقدمات

كتابه التقريب لحد المنطق فوائد هذا العلم فيقول: "وليعلم من قرأ كتابنا هذا أن منفعة هذه الكتب ليست في علم واحد فقط، بل في كل علم".

وتمتد هذه المنفعة إلى فهم كتاب الله تعالى، ومعرفة معاني الأسماء والأحكام الواردة فيه، وينطبق هذا على سنة الرسول – صلى الله عليه وسلم – كما تمتد إلى الفتيا في الحلال والحرام، وإلى النظر في الآراء والديانات والأهواء والمقالات، بل إلى علم النحو واللغة والتاريخ والشعر والبلاغة والعروض، بل إلى الطب والهندسة والفلك وأمثالها[86].

ويذكر ابن حزم أن تعليم الناس طرائق البرهان، وسبل الاستدلال عمل يُرجى ثوابه والأجر عليه من الله تعالى، لما يترتب عليه من إيضاح الحقائق، وإزالة الغموض، ومواجهة الظنون، والتحلي بالعلم الذي به بَانَ البشرُ عن البهائم "فَقَوِيَ رجاؤنا في أننا ببيان ما نبينه منها نكون السبب في هداية من سبقت له الهداية في علم الله – عز وجل – ... ولم نجد أحدًا قبلنا انتدب لهذا، فرجونا ثواب الله – عز وجل – وأمَّلنا عونه تعالى في ذلك"[87]. ثم يشير إلى هذا المعنى – أيضًا – في مثل قوله: "فتقربنا إلى الله – عز وجل – بأن نورد معاني هذه الكتب بألفاظ سهلة ... يستوي – إن شاء الله – في فهمها العامَّي والخاصَّي، والعالم والجاهل، حسب إدراكنا، ومَنَحَنا خالقنا – تبارك وتعالى – من القوة والتصرف"[88].

وقد رأى أن هذا من أوجب الواجبات على أهل العلم، أن يسهلوا طرق العلم، ويمهدوا سبله، وأن يقوموا بنشره وتيسيره وتوصيله للناس، وتلك مهمة نبيلة

على العالم أن يقوم بها، ويرفع بها صوته عاليًا، ليقُوم بهذه الأمانة الجليلة؛ مرضاةً وقربى إلى الله – عز وجل. وفي هذا يقول عن العالم الذي يتصدى لهذا الأمر؛ إحساسًا منه بالمسئولية، وقيامًا بالواجب "بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة – ويدعو إليه في شوارع السابلة، وينادي عليه في مجامع السيَّارة، ويعظِّم الأجعال عليه للباحثين عنه ... صابرًا – في ذلك – على المشقة والأذى – لكان ذلك حظًّا جزيلًا، وعملًا جيدًا، وسعيًا مشكورًا كريمًا وإحياء للعلم"(89).

ولا نريد أن نستفيض في هذا المعنى الذي أفاض فيه ابن حزم وهو يقدم ما يشبه أن يكون نظرية متكاملة في المعرفة وأخلاقيات العلم وآداب المناظرة – لا سيما إذا ما ضممنا إليها ما بدأ به كتابه الفِصَل، وكتابه الإحكام، ورسالته في مراتب العلوم – لكننا نريد – هنا – التنبيه على أن هذا الرجل الذي خاض غمرات الجدل مع مخالفيه من القدامى والمعاصرين، في علوم كثيرة لم يكن ليفعل هذا كله خبط عشواء، بل إنه كان يستحضر في ذهنه قواعد ومبادئ علمية وخلقية كان ينثرها بين يدى جداله لهم، لتكون مرجعًا ينبغي الاحتكام إليه، حتى لا يجري الجدال على غير هدى، وهي تكشف – في الوقت نفسه – عن موقف من "الآخر" يسمح بالتجاوز والتَّعايُش معه، حتى لو كان بينه وبينهم اختلاف في الرأي أو في الرؤية والمذهب والانتماء.

وسنشير إلى بعض هذه القواعد والمبادئ على سبيل البيان، لا على سبيل الاستقراء والاستقصاء؛ لأن ذلك باب يطول.

- وكان ابن حزم أيضًا – في سياق عرضه لآرائه، وجداله لمخالفيه – على التصريح بضرورة أن يتجنب الباحثون عن الحقيقة الوقوعَ في الأهواء، وأن يتحلوا بطلبها بتجرد وإخلاص وموضوعية، وفي ذلك يقول: "واعلم أنه لا يدرك الأشياء على حقائقها إلا من جرَّد نفسه عن الأهواء كلها، ونظر في الآراء كلها نظرًا واحدًا مستويًا، لا يميل إلى شيء منها، وفتش أخلاق نفسه – بعقله – تفتيشًا، لا يترك فيها من الهوى والتقليد شيئًا ألبتة ... فإن من فعل ما قلنا فضمانٌ له إدراك الحقائق على وجوهها في كل مطلوب"[90]. وبهذا يتخلص من الإعجاب بالرأي الذي يدفع إلى الاستعلاء والتعصب والكبر على الخلق، وغمط الحق ورفضه. وقد كان ابن حزم حريصًا على أن يخلص نفسه من الأهواء والآفات الخلقية التي يعترف بوجود بعضها فيه وهو يتحدث – في هذا السياق – بصراحة مدهشة غير معهودة، وقد بيَّن أن أول ما يُعِين على التخلص من هذه الرذائل هو الإقرار بها، وعدم الإنكار لوجودها، وفي ذلك ما يعين طالب الفضائل على الاتعاظ بها. وكان من وسائله لتحقق ذلك: رياضة النفس، والاطلاع على ما قاله الأنبياء، وأفاضل الحكماء[91]، والتخلق بأخلاق العلم الذي يؤدي إلى الخلق الحسن؛ حيث إن "منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة، وهو أنه يُعَلِّم حُسْن الفضائل فيأتيها [طالب العلم]، ولو في الندرة، ويعلِّم قبح الرذائل، فيتجنبها، ولو في الندرة ... فعلى هذه المقدمات وجب أن يكون للعمل حصة في كل فضيلة، وللجهل حصة في كل رذيلة"[92].

وتسوقه تلك الرياضة للنفس ومجاهدتها، وحب العلم وإيثاره والرغبة في إرضاء الله – تعالى – إلى التخلق بخلق العدل، والتمسك بقيمة الحق، وهذا من أفضل نعم الله على الخلق "أفضل نعم الله على العبد أن يطبعه على العدل وحُبِّه، وعلى الحق وإيثاره، وأما من طبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه فلْييأس من أن يصلح نفسه، ويقوّم طباعه أبدًا، وليعلم أنه لا يفلح في دين، ولا خلق محمود. والزهد والحسد والكذب والخيانة فلم أعرفها بطبعي – قط – وكأنني لا حمْد لي في تركها؛ لمنافرة جبلتي إياها"(93).

ونحن نلاحظ في نصوص ابن حزم هذه، وفيما يماثلها، وهو كثير – أنه كمن يضع لنفسه أصولًا، وإطارًا يحكم حركته العلمية والفكرية، ويجعل عليها سياجًا خُلُقيًا يمنعها من الخروج عليه في جداله، ولذلك وجدناه حريصًا على تجنب ما لا يتسق معها، سواء أكان ذلك متعلقًا به، أم متعلقًا بغيره.

ولذلك حذَّر من التعسف في رفض الحق، ومن الغرور بالرأي، ومن طلب المحمدة من الناس، ومن تحقير أحد، ومن التكلم بغير الحق، أو المجادلة في باطل، ثم قال: "واعلم أنه لا يقدر أحد على هذه الشروط إلا بخصلة واحدة، وهي أن يُرَوض نفسه على قلة المبالاة بمدح الناس أو ذمهم إياه، ولكن يجعل وُكْده طلب الحق لنفسه فقط"(94).

ثم إنه يشير – فضلًا عن ذلك – إلى خصال وفضائل أخرى، منها التواضع للحق، وتقبله برضا نفس، دون كبر أو استعلاء؛ لأنه لا يوجد معصوم بعد الأنبياء، وما من أحد إلا يؤخذ من كلامه ويترك إلا الرسول صلى الله عليه

وسلم كما قال ابن عباس وغيره، ولا ينبغي لأحد أن يظن في نفسه أن الحق مربوط به، ودائر عليه وحده؛ فذلك من الغرور والكبر، وكلاهما مذموم. وقد أفصح ابن حزم أنه ابتُلي – في أوائل عمره بمرض العجب الشديد بالنفس "فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله، ولم يبق له – والحمد لله – أثر، بل كلَّفْتُ نفسي احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع"[95].

ويحكي ابن حزم عن نفسه حكاية تجمع بين التواضع في نفسه والإنصاف لغيره؛ رجاء الاعتبار والاتعاظ بها، يقول: إني ناظرت رجلًا من أصحابنا في مسألة، فَعَلَوْتُه فيها؛ لبُكُوءٍ كان في لسانه. وانفصل المجلس على أني ظاهر. فلما أتيت منزلي حَاك في نفسي منها شيء. فطلبتها في بعض الكتب فوجدت برهانًا صحيحًا، يبين بطلان قولي، وصحة قول خصمي. وكان معي أحد أصحابنا، ممن شهد ذلك المجلس، فعرَّفته بذلك، ثم رآني قد علَّمت على المكان من الكتاب، فقال لي: ما تريد؟ فقلت: أريد حمل هذا الكتاب، وعرْضه على فلان، لإعلامه بأنه المحقُّ، وأني كنت المبطل، وأني راجع إلى قوله. فهجم عليه من ذلك أمر مُبْهت، وقال لي: وتسمح نفسك بهذا؟ فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا لما أخرته إلى الغد"[96].

* وإذا كان التواضع للحق من أهم الفضائل التي يتحلى بها العلماء فإن طلب الحق يجب أن يكون من مقاصدهم وغاياتهم؛ بحيث لا يُلقون بأنفسهم في مهاوي الباطل وَوِهَاده، بل ينبغي أن يكون من مقاصدهم نصرُ الحق، وقمع الباطل[97] لكن تحقيق هذه الغاية النبيلة لا يتحقق بالأماني والادعاء، بل إن

ذلك يحتاج إلى جهد واستعداد؛ وترويض للنفس على التواضع، وتخليصها من الكِبْر، لأن ذلك لا يكون "إلا بشدة البحث، وشدة البحث لا تكون إلا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال، والنظر في طبائع الأشياء"[98] وسماع حُجّةِ كلَّ محتج، والنظر فيها وتفتيشها، والإشراف على الديانات والآراء والنحل والمذاهب والاختيارات واختلاف الناس وقراءة كتبهم". إلى علوم أخرى كثيرة[99] مع ضرورة الحرص على ألا يقبل قول إلا ببرهان وحجة، "وأن من لم يأت على قوله بحجة فهو مبطل بنص حكم الله عز وجل ... وأنه لا يفلح إذا قال قولة لا يقيم على صحتها حجة" وعلل ذلك بأن "الحجة الصحيحة أقوى في مواجهة الخصوم من السلاح الشاكي، والأعداد الكثيرة؛ لأن الأعداد قد تهزم، أمَّا الحجة فلا تهزم أبدًا"[100].

* وإذا كانت هذه الخلائق والفضائل من الأمور المرغوبة والمطلوبة في الشخص نفسه فإنها مطلوبة – كذلك – في علاقته بغيره من العلماء فهو يطالب من يجادله بما يلزم احترامه وتحققه بين المتجادلين من بيان الحق، واستعمال البرهان، وفي هذا يقول: "قبل كل شيء، أريد أن تنظر في كلامي بعين سليمة من الإعراض والاستحسان معًا، وبنفس بريئة من النِّفار والسكون معًا، لا كما ينظر المرء بما لم يسمعه – قط – فيسبق إليه منه قبول، يُسهّل عليه الباطل، أو نِفَار يوعِّر عليه الحق، فمن هذين السعيين تاه أكثر الناس، وفارقوا المحجة"[101].

ويعلن ابن حزم – بقوة – أن المسامحة في طلب الحقائق لا تجوز ألبتة، فالأمر إما حق، وإما باطل، ولا يجوز أن يكون حقًّا باطلًا ولا باطلًا حقًّا، والحق يَثْبُتُ بالبرهان لا بشيء سواه، وهو إما أوَّلِّي يعتمد على النص الصحيح، أو بداهة العقل، أو بالحس أو بالخبر الصادق الصحيح، وإما بوسيلة ترجع إلى هذه المصادر الأولية للمعرفة. وما سوى ذلك فباطل[102].

ويفرِّق – ابن حزم – في المناظرة والجدال بين من يطلبون الحق، ومن يعرضون عنه، وهو يرتضي أن يقع الجدال مع الفرق الأول منهما دون الثاني؛ لأن الأول منهما طالب حقيقة ومريد بيان، وهو يريد أن يوصِّل إلى من يناظره من الحقيقة مثل الذي عنده منها، وأن يزيل الشكوك التي تحول في صدره فتمنعه من قبولها[103].

* فإذا اتفق أن يكون المتناظران من طالبي الحقيقة فهذه – كما يقول ابن حزم – مناظرة فاضلة، حميدة العاقبة، يوشك أن تنحلَّ عن خير مضمون"، أما إذا كان المتناظران من أهل المغالطة فتلك "مناظرة يكثر فيها الشغب، ويعظم النصَب، ويكثر الصخَب، ويشتد الغضب، ويوشك أن تشتد مضرتها. وأما المنفعة فلا منفعة"[104].

* ويلحُّ ابن حزم على التخلق بخلق الإنصاف مع الخصم إذا كان هو الذي هُدي إلى الحق في القضية المختلَف فيها؛ لأنه إذا رفض الحق سيكون ظالمًا لخصمه؛ بل سيكون – عندئذ – ظالمًا لنفسه، وهو يحذِّر من التقوُّل عليه بنسبة شيء إليه لم يقله ولم يلتزمه. ثم لا يتوقف ابن حزم عند هذا الحد؛ بل

يقول ناصحًا "واعترفْ لمن هو أعلم منك؛ فإنه أزْين لك، ولا تَبخسه حقَّه، فلن ينقصه تنقُّصُك إياه، بل هو نقص فيك، واحذر كل من لا ينصف ... ولا تُكَلِّم إلا من ترجو إنصافه وفهمه"(105).

ثم يحذِّر المغلوبَ في الجدل من أن تغلبه نفسه فتستعظم أن يُعْرَفَ عنها أنها خرجت مهزومة؛ لأنها – إذا لم يحكمها دين وضمير – تستكثر ذلك، وعندئذ قد تلجأ إلى المغالطة وقلب الحقائق، والإخبار بغير الذي وقع، ويقول ابن حزم لمثل هذا "ولا يكنْ غرضك أن توهم نفسك أنك غالب، أو توهم من حضرك، ممن يغتر بك، ويثق بحكمك، أنك غالب، وأنت في الحقيقة مغلوب، فتكون خسيسًا وضيعًا جدًّا، وسخيفًا ألبتة، وبمنزلة من يوهم نفسه أنه مَلِك مطاع، وهو شقي منحوس"، والراضي بهذا المسلك مغرور أحمق، وقد يأنس بهذا قليلًا، لكنه إذا ثاب إليه عقله ونظر في حاله علم أنه في أضاليل، وأنه ليس في يده شيء(106).

* وتتجاورُ فضيلة الإذعان للحق وللرضا به، حتى ولو جاءه على لسان خصمه، مع فضيلة الإنصاف التي تتكرر في وصايا ابن حزم ونصائحه؛ لأن الإنصاف في الناس قليل، ويقتضي الإذعانُ للحق إثباتَ ما يثبته البرهان، وإبطال ما يبطله البرهان، فإذا قصَّر مقصِّر عن إقامة البرهان فذلك لا يضر الحق شيئًا، وعليه أن يقبل الحق من كل من جاء به، حتى لو كان خَصْمَه، وفي هذا يقول "ولا تقنع بغفلة خصْمك؛ بل انظر في كل ما يمكن أن يصح به قوله، فإن وجدت حقًّا ببرهان فارجع إليه ولا تتردد، ولا تَرْضَ لنفسك ببقاء

ساعة، آبيًا من قبول الحق ... ولا تستوحش مع الحق إلى أحد، فمن كان معه الحق فالخالق – تعالى – معه"[107].

فأما الإزراء بالحق، والإهدار له، وقلب الحقائق فليس من شيمة الفضلاء؛ بل هو من شيمة أهل التبجُّح والادعاء، الذين يصل بهم الغرور والجهل والحماقة إلى أن يقول قائلهم: "إني قادر على أن اجعل الحق باطلًا، والباطل حقًّا، فلا تصدق مثل هؤلاء الكذابين؛ فإنهم سفلة أرذال، أهل كذب وشر ومخرقة"[108].

ويمعن ابن حزم في تأكيد قيمة الحق، ودعوته إلى الالتزام بها، منه وممن يختلفون معه؛ حتى إنه لا يلتزم بهذا فيما توصل إليه – فقط – من رأي أو حكم، وما اعتمد عليه من حجة، بل إنه يقول: "وكذلك نقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن، فنقول، مُجدين مُقِرين: إن وجدنا أهدى منه اتبعناه، وتركنا ما نحن عليه"[109]. وقد يظهر هذا الحق على لسان الخصم، وعندئذ يجب الرجوع إلى قوله، وهو لا يدَّعي أنه هو – وحده – الذي يمتلك الحقيقة كلها؛ بل يمكن أن يظهر الحق على يد غيره، وخصوصًا فيما يقع فيه إشكال في الفهم، أو اختلاف في النظر، وهو يقول في مثل هذه الحالة: إننا "قاطعون باتُّون على أن علم الحقيقة – فيما أشكل علينا – موجود عند غيرنا، ولا بدّ"[110].

وهو يقبل هذا الحق من خصمه، حتى ولو كان خصمه مخطئًا في بعض ما ذهب إليه من رأي أو اجتهاد في مسائل أخرى؛ لأن الاهتداء إلى الحق المطلق لا يكون لأحد إلا بعصمة إلهية، وهذا لا يكون إلا للأنبياء عليهم

السلام، "وليس أحد بعد النبي – صلى الله عليه وسلم – إلا وهو يخطئ ويصيب، فليس خطؤه بمانعٍ من قبول صوابه"[111].

وليس غريبًا – وهذا هو رأيه وشأنه – أن يحكم على من لا ينقاد للحق ويذعن له ويرجع إليه إذا ظهر بأنه فاسق، بسبب جحوده للحق ونُكُوله عنه[112] أما إذا عجز المختلفان في الرأي عن الوصول إلى الحق، بأن أثبت أحدهما شيئًا ونفاه الآخر، ثم أقام كل منهما الدليل على صحة دعواه، أو عجزا عن إقامة الدليل "فحكْمُ ذلك الشيء أن يُتَوَقَّف فيه ... إلا أننا لا نقول به، ولا نحكم به، ولا نقطع أنه باطل ... ولكن نقول: الله أعلم"[113].

* وهكذا يحتكم ابن حزم – فيما تحدث به عن علاقته بالمخالفين له في الرأي – إلى مجموعة من الفضائل والقيم التي تفتح المجال – إلى حد كبير – للتفاهم والتحاور، وتؤدي إلى التواصل العلمي الذي يؤدي إلى تخفيف العصبية المذهبية، وتمحيص الحقائق، والتقليل من شُقَّةِ الخلاف الواقع بين العلماء، وما أجمل ما تحدث به ابن حزم! ولكن ما أبعد المسافة بين الدعوة والتطبيق، كما تدل على ذلك وقائع التاريخ!

* على أن آراء ابن حزم لم تقتصر على علاقته بنظرائه من أهل العلم والفكر، المشغولين بالعقيدة والفقه وغيرهما من العلوم؛ بل إنها تتناول دائرة أوسع من الحياة الاجتماعية التي عاش ابن حزم في ظلها، وقد تفاوتت علاقته بها ضيقًا وسعة، وقربًا وبُعدًا، وقد اتضح من حديثه عن هذه الدائرة الواسعة أنها كانت محكومة – كسابقتها – بمنظومة من القيم الخلقية التي كانت ثمرة لتدينه

وعلمه الكبير بالشريعة، والمعرفة الواسعة بالحديث الشريف والسيرة النبوية، وجاء الحديث عن أكثر هذه القيم في رسالته: مداواة النفوس، وجاء بعضها في بعض رسائله الأخرى.

* وتتجلى قيمة التعاون والتكامل في الجهد الإنساني ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها في الحياة الاجتماعية بصفة عامة؛ لأن الفرد لا يستطيع – وحده – أيا كانت قدراته العقلية والعلمية والمادية، أن يقوم بمصالحه كلها؛ ولهذا سيظل – دائمًا – بحاجة إلى معاونة الآخرين له، على قضاء حاجاته، وتلبية مطالبه، ومن قديم قال الفلاسفة والمفكرون إن الإنسان مدني بالطبع، أي أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا أن يلبي جميع مطالبه دون الاستعانة بالآخرين، وهو لا يستطيع مثلًا أن يكون عالمًا وقاضيًا وطبيبًا وزارعًا وصانعًا، وعارفًا بالمهن، وتاجرًا وجنديًّا حارسًا، وهكذا، ومن ثم فهو في حاجة دائمة إلى الآخرين، ويتضح هذا المعنى في حديث ابن حزم عن ضرورة التعاون في مجال العلم بالشريعة، وفيما تتطلبه من معرفة الأحكام وإقامة البراهين، والدراية بعلوم الفقه والحديث واللغة والحساب والطب والبلاغة ونحوها من العلوم، وقد طالب بأن يكون الناس في تعاونهم على تحصيل هذه العلوم، وإقامة الواجب فيها "كالمجتمعين لإقامة منزل، فإنه لا بد من بنَّاء وأُجراء ... ومن صُنَّاع وقطاعي خشب، وصنَّاع أبواب ومسامير حتى يتم البناء، وينطبق ذلك على كل ما بالناس الحاجُة إليه من الزراعة والحرث "فإنه لا يتم إلا بالتعاون على القيام بآلاته والعمل بها، وكذلك التعاون على ما به تكون النجاة والترقي إلى عالم

الخلود" ويؤيد ابن حزم كلامه هذا بذكر كلام لأحد شيوخه، ويوجَّه فيه نظره إلى أن الحرَّاث يحرث للإنسان، والطَّحَّان يطحن له، والخباز والجزار والبنَّاء وسائر الناس، وهذا كله يستوجب أن يقوم الإنسان الذي يحتاج إلى معاونة الناس له – في كل أمور حياته – بالمعاونة لهم أيضًا، وأن يكون متعاونًا معهم في أداء الوظائف والمصالح الاجتماعية،" (أفَمَا يستحي أن يكون عيالًا على كل العالم، لا يعين هو – أيضًا – بشيء من المصلحة؟!).

ويعلق ابن حزم على هذا قائلًا: ولقد صدق، ولعمري إن في كلامه من الحِكَم لَمَا يستثير الهمم الساكنة إلى ما هُيئت له، وأي كلام في نوع هذا أحسن من كلامه في تعاون الناس؟ وقد نبه الله تعالى عباده بقوله: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى)[114] [المائدة: 2]

ولكن الناس ليسوا سواءً في طبائعهم وأخلاقهم وأحوالهم؛ ففيهم الخيِّر والشرير، وفيهم ذو الأخلاق الحسنة والفضائل، وفيهم ذو الأخلاق السيئة والرذائل، وفيهم المحب وفيهم المُبغض، وفيهم المُحِقّ وفيهم المبطل، وفيهم من يسعى إلى تحقيق المصالح، ومن يسعى إلى الإيذاء والمضارَّ، ولا يمكن أن يقع التعاون مع هؤلاء جميعًا بطريقة واحدة، أو بصورة واحدة من صور التعاون، ومن ثم يحتاج التعامل معهم – وهم على هذا النحو من الاختلاف – إلى استحضار بعض المبادئ والقواعد الخلقية التي تمثل منطلقًا للسلوك، وسياجًا له من الخطأ والظلم وسوء التصرف.

وقد حفلت نصوص ابن حزم بعدد من هذه المبادئ الخُلقية التي كان يوصي نفسه وغيره بها، ومن ذلك قوله:

– من جهل معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمر به الله تعالى، ورسوله – صلى الله عليه وسلم – فإنه يحتوي على جميع الفضائل[115]، وأن الاتَّساء بالنبي – صلى الله عليه وسلم – في وعْظِه أهلَ الجهل والمعاصي والرذائل واجب[116]، وأنه إن لم يكن بدٌّ من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل، ولم يكن للإنسان مندوحة عن منافرة الحقَّ ومنافرة الخلق فَليُغضِب الناسَ وينافرهم؛ لأنه لا يصح له أن ينافر الحق، أو يغضب ربه تعالى[117].

– وإذا كان ابن حزم يركز – فيما سبق – على المنطق الديني في التعامل مع الناس فإنه لا يغفل أمر الاحتكام إلى العقل الرشيد في هذا التعامل أيضًا، فالشرع والعقل يتكاملان في ضبط السلوك وتهذيب الأخلاق، والارتقاء بها، وفي ذلك يقول:

إنمـــا العقـــل أســـاس فوقـــه الأخـــلاقُ سُـــور
فَلْتُحَـــلِّ العقـــل بالعلـــ ـــم وإلا فُهْـــو بُـــور[118]

وقد كان ابن حزم واقعيًّا في نظرته إلى بني الإنسان، فهم ليسوا جميعًا من الأطهار الأبرار، وهم كذلك ليسوا جميعًا من الأشرار؛ بل إنهم يجمعون مزيجًا من الخير والشر، وعلى كل منهم أن يعمل على أن يزداد حظه من الخير والفضائل، دون ركون إلى الإعجاب الزائد بالنفس، إعجابًا يَصْرفُها عن رؤية نقائصها، لذلك قال: "واعلم يقينًا أنه لا يسلم إنسيٌّ من نقص، حاشا الأنبياء –

صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين – فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط، وصار من السخف والضَّعة والرذالة والخسة، وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم؛ بحيث لا يتخلف عنه متخلف من الأرذال"[119].

- وإذا كانت المخالطة للناس ضرورية، وكانت حظوظ هؤلاء من الأخلاق متفاوتة فإن الإنسان قد يُبتلى بمخالطة أهل السوء من بينهم، ولا يخلو الأمر من شيء من هذا، خصوصًا إذا كان كابن حزم، الذي كثر خصومه ومخالفوه في الرأي والمذهب في الفقه والاعتقاد، ثم جمع إلى ذلك شجاعة في إبداء الرأي، وقوة في الحجاج والجدل، وجرأة في الصدع بالحق، دون مبالاة بالعواقب، وأورثه هذا كله خصومًا أشدَّاء من الحكام والفقهاء، وغيرهم من أتباع الأديان الأخرى، وكان ذلك سببًا في الشعور بثقل الخصومة، وتأثيرها في مشاعره ومواقفه؛ ولهذا وجدناه يقول – في لهجة مشبعة بالأسى "مَحِنُ الإنسان في دهره كثيرة، وأعظمها محنته بأهل نوعه من الإنس، وداء الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكَلِبة والأفاعي الضارية؛ لأن التحفظ من كل ما ذكرنا ممكن، ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلًا"[120].

وهو يشكو من النفاق الغالب على أكثرهم، ومن ميل بعضهم إلى الأذى، ورمي غيرهم بالقبائح والفضائح، ومن وقوع بعضهم في الكذب والافتراء واللجاج إلى غير ذلك من الشرور[121].

وهنا نجد ابن حزم يعتصم بما تأصل في طبعه وعقله من القيم؛ حتى لا ينتقل عما يحرص عليه من السلوك القويم، ومنها العدل الذي هو "حصن يلجأ

إليه كل خائف ... فمن كان العدل في طبعه فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين"[122]. وهذا العدل يزين للنفس "الإنصاف، ويجيب إليها موافقة الحق" وهذا مما أمر الله تعالى به في كتابه، ثم هو ما يرتضيه العقل أيضًا[123] وهذا العدل هو أفضل نعم الله على عبده[124].

وهذا الإنصاف – الذي هو ثمرة من ثمرات العدل – يدفع صاحبه إلى إنصاف الخصم بأن يتوهم نفسه مكان خصمه، حتى يبرأ من الظلم له والتعسف معه، وهو مكلف – بحسب العدل والإنصاف – ألا يُسْلم عدوَّه لظلم، أيًّا كان، بل إنه مكلف بأن يساوي – في النظر إليه والحكم عليه – بينه وبين الصديق[125] وعليه – في كل الأحوال – أن يحذر كل من لا ينصف[126] كما هو شأن أهل الجور، ومن يصدقون أن من الناس من هو سالم من الرذائل التي يتصفون هم بها[127].

وَلْيوطن الإنسانُ نفسه على أنه لن ينجو – مهما كان سليم الصدر، جميل الطبع، حسن الأخلاق – من ظلم الناس وطعنهم فيه، وفي هذا يقول: "من قدَّر أن يَسْلَمَ من طعن الناس وعَيْبهم فهو مجنون"[128].

ولن يخفف إحساسه بالألم من ذلك إلا أن يطَّرح المبالاة بكلام الناس، وأن يراعي الله عز وجل، وهذا باب عظيم من أبواب العقل والراحة[129].

وينتهي ابن حزم – في تقريره لما ينبغي علمه في هذا الشأن – إلى أن على الإنسان ألا يستعمل سوء المعاملة مع الخلق، حتى لا يلحق بذوي الشرارة من الناس، وأن عليه أن يعامل كل أحد من الإنس أجمل معاملة[130].

* وأما الأصدقاء فلهم – فوق هذه الأخلاق والحقوق – حقوق أخرى كالنصح[131] والمسامحة[132] والإيثار[133] ورعاية مشاعر الصديق؛ بحيث لا ينقل إليه ما يسوؤه، أو يؤلمه، والتحمُّل لما يقع فيه من خطأ في حقه، والصبر الطويل على ما يقل منه في جفاء، يقول: "وإني لأُجْفَى فأحتمل، واستعمل الأناة الطويلة، والتلو الذي لا يكاد يطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر، وحميت نفسي تصبَّرت، وفي القلب ما فيه"[134].

ويتوج ابن حزم هذا كله بخلق الوفاء الذي يقول إنه جُبِل عليه، وهو وفاء "لا يشوبه تلوُّن، وقد استوت فيه الحضرة والمغيب، والباطن والظاهر"[135].

وهو يذكر أن الله منحه من هذا الوفاء قسطًا عظيمًا حتى إنه ليفي "لكل من يمت إليه بِلُقية واحدة" ثم يقول: "ووهبني من المحافظة لمن يتذمم مني، ولو بمحادثته ساعة – حظًّا أَنَا لَهُ شاكر وحامد ... وما شيء أثقل عليَّ من الغدر. ولعمري، ما سمحت نفسي – قط – في الفكرة في إضرار من بيني وبينه أقل ذمام، وإن عظمت جريرته، وكثرت إليَّ ذنوبه، ولقد دهمني من هذا غير قليل، فما جَزَيْتُ لي السُّوأى إلا بالحسنى، والحمد لله على ذلك كثيرًا"[136].

** **تعقيب:**

ولعله بات واضحًا مما سبق أن ابن حزم لم تستغرقه تلك الحدة التي طبعت مواقفه تجاه الآخرين من العلماء والحكام وأمثالهم، وأدَّت به إلى بعض المواقف التي يمكن وصفها بالشدة والعناد والصراحة الموجعة؛ بل إن القراءة المتأنية لمجمل كتاباته تكشف عن جوانب أخرى، تحدث فيها عن قيم كانت

تظلل علاقاته بالآخرين، وتمتد هذه القيم إلى علاقاته بخصومه من أولئك المخالفين له، في مجال العلم أو في مجال الحياة الاجتماعية الإنسانية، وقد وجدناه – في كثير مما أوردنا نصوصه فيه – يتحدث عن المودة، والتعاون والتسامح والتَّعايُش والصبر على الجفاء، والتخلق بالوفاء، وهذا يفتح آفاق العلاقة الإنسانية بينه وبين بني البشر، على اختلاف أخلاقهم ومواقفهم تجاهه.

- ويلاحظ أن تكوينه العلمي، المرتبط بالشريعة كان له دخل كبير في إضفاء هذا الطابع الإنساني على أفكاره، وقد كان يؤسس كثيرًا من أفكاره، أو يشفعها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بل إنه كان يستحضر دلالاتها ومضامينها حتى في حديثه عن مشاعره الذاتية وعواطفه الشخصية، على نحو ما يتجلى في كثير من الوقائع التي ساقها في كتابه طوق الحمامة، وكذا في رسالته عن مداواة النفوس.
- ثم يلاحظ – كذلك – أن حديثه عن علاقته بالآخرين – في دوائر علاقاته المتعددة، في العلم والسياسة، والحب، والصداقة، والعداوة ونحوها، – كان يأتي مقرونًا – في الغالب – بتجارب شخصية عاناها بنفسه، أو حُكيت له ممن يثق في صدقهم وأمانتهم. وقد كان يذكر الأسماء والأماكن والأحداث، على نحو أضفى على كلامه – بل على ما يمكن تسميته بأدب الاعتراف – مسحة قوية من الصدق والصراحة التي لم تكن معهودة في كثير ممن كان لهم مثل مكانته من السابقين أو اللاحقين، وظهر هذا في كتبه ورسائله، وبخاصة في طوق الحمامة.

ولقد كان من صراحته وصدقه، وعدم مبالاته بقدح القادحين أو لوم اللائمين أن يقول عن نفسه "وكانت فِيَّ عيوب، فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء والحكماء والمتقدمون في الأخلاق وآداب النفوس أعاني مداواتها، حتى أعان الله – عز وجل – على أكثر ذلك"، فمنها كَلَفٌ في الرضا، وإفراط في الغضب، ودُعابة غالبة، وعُجْب شديد، ومحبة في بُعْد الصيت والغَلَبة، والإفراط في الأنفة؛ بل منها حقد مفرط وسوء ظن، وهو يذكر – في صراحة مدهشة – ما استطاع أن يتغلب عليه منها، وما استطاع أن يتخلص من أكثره، دون أن يقضي عليه تمامًا، وفي ذلك يقول عما ابتُلي به من حقد مفرط "قدرت – بعون الله – على طيه وستره، وغلبته على إظهار جميع نتائجه، أما قطعه – ألبتة – فلم أقْدر عليه، وأعجزني – معه – أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبدًا"[137].

- إن بعض ما يتصف به كلام ابن حزم من حدة قد يمكن تفهُّمه إذا لاحظنا ما كان يقع بين أصحاب المذاهب المختلفة من صراعات، عالية النبرة، شديدة اللهجة، لا سيما إذا كانت بين المختلفين في الدين، أو في المذاهب الاعتقادية، ولقد كان الأمر يصل إلى حد تكفير الخصوم في بعض الأحيان، ويظهر هذا – مثلًا – في كتابات علماء الفرق بعضهم عن بعض، ككتابات علماء المعتزلة ومؤرخيهم عن الأشاعرة، أو كتابات علماء الأشاعرة ومؤرخيهم عن المعتزلة، وينطبق هذا على غيرهم من الفرق أيضًا، وقد امتدت هذه الحدة إلى مجالات أخرى مما وقع فيه الاختلاف، بل إنه

امتد إلى مدارس الأدب والنحو وغيرها، فإذا كان ابن حزم قد جمع هذه كله فكأنه استجمع كثيرًا من الروافد في تلك الحقول التي كثر فيها مخالفوه، وليس هذا ببعيد، لا سيما إذا اقترن بذلك اعتزازٌ بالنفس، وبالعلم، وبالمكانة الموروثة عن أسلافه، وبالمكانة الطارفة التي حصَّلها، حتى وصل إلى الوزارة، وكان – وقْتًا ما – من أهل السلطان.

- ولقد يضاف إلى ما سبق إحساسه بكثير من الغبن بسبب ما أصابه من تقلب الزمان، وتبدل الأيام، ونكبات السلطان، والاعتقال، والغُرْم الفادح، وذهاب المال والجاه[138].

ومن شأن هذا كله أن يحدث أثره في النفس فيصيبها بالحزن والأسى والمرارة، بل قد يصيب صاحبه باليأس من استرجاع ما وضع، أو الاستعاضة عنه بالجديد، وليس بمستغرب أن يؤدي هذا كله إلى تلك الحدة التي هي أشبه بنفثة المصدور.

ولكن الأمر لا يستقر عند ذلك؛ بل يكفكف منه، ويخفف من حدته تديُّن ينقله إلى سعة في الصدر، وفسحة في الرجاء، تهدأ فيها ثائرة نفسه، وشدة لسانه، حتى يصل به ذلك إلى تعايش وإنصاف وتعاون ومسالمة ووفاء.

وهكذا وجدنا ابن حزم يقول:

إذا ما صح لي دينٌ وعرضٌ فلستُ لما تولَّي ذا اهتمام

تولى الأمس، والغد لست أدري أأدركه ففي ماذا اغتمامي[139]

ولله الأمر من قبل ومن بعد، وله الحمد أولًا وآخرًا.

الهوامش

(1) أخبر هو بذلك فيما كتبه للقاضي صاعد الأندلسي الذي كان معاصرًا له، انظر: طبقات الأمم، تحقيق وتعليق د/ حسين مؤنس، طبع دار المعارف، مصر، ط (1)، 1998م، ص 99

(2) السابق: 98

(3) السابق: 98

(4) ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 325/3، 326، والمقصود بالألفاظ العامَّية هنا: الألفاظ الشائعة المعروفة السهلة، التي لا تقتصر على ألفاظ المناطقة بما فيها من مصطلحات صعبة يَعْسُر على غير أهل الاختصاص فهمها.

(5) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، كتاب الصلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2008م، القسم الثاني 416، 417

(6) المُغرِب في حُلَي المغرب، لمجموعة من أدباء الأندلس، تحقيق د/ شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط: (3) 1964/3 جـ 1/ 355، ويقال: إنه بدأ مالكيًا لكنه انتقل عن هذا المذهب السائد إلى مذهب الشافعي. انظر: د/ الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم وطوق الحمامة، دار المعارف ط: (3)، 1981م ص 88، 89

(7) ابن حزم: رسالة في مداوة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق د/ إحسان عباس، طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2 / 1987م، جـ 1 /355

(8) انظر: التقريب لحد المنطق، ضمن رسائل ابن حزم 2/ 343، 344

(9) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف عبد الواحد المراكشي، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط: (1)، 1963م، ص 94، وانظر: 97 التي يشير فيها إلى استمرار المذهب في الأندلس بعد وفاة ابن حزم بنحو قرنين أو يزيد.

(10) المغرب، مرجع سابق 355/1

(11) المعجب، ص 95

انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني المطبعة الأدبية 1317هـ، 118/2، وانظر: رسائل ابن حزم 192/3/2، والمحلَّى 69/66/1

(12) انظر: رسالتان، ضمن رسائل ابن حزم 109/3/2، 110، وانظر: 167

(13) رسائل ابن حزم 35/3/2

(14) الفصل 35/5، 36، والنص من ص 36 الفصل 2/ 116

(15) انظر: مقدمة د/ إحسان عباس لتحقيق رسائل ابن حزم 45/1، 46، 51، 52، وانظر كذلك الرسائل 191/3/2، والإحكام 59/6 – 149 وهو فصل كبير في إبطال التقليد لغير المعصوم – صلى الله عليه وسلم.

(16) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام تحقيق العلاَّمة أحمد محمد شاكر، تقديم د/ إحسان عباس، نشْر دار الآفاق الجديدة، بيروت، مجلد 2/ ج 5/ 81

(17) الفصل 2/ 116

(18) الفصل 118/2 بتصرف يسير جدًّا

(19) الفصل 3/3

(20) انظر: الفصل 82/1

(21) الفصل 116/2

(22) سنشير إليها بإيجاز، دون دخول في كثير من التفصيلات

(23) رسائل ابن حزم 2/ 3/ 100، 101

(24) انظر: الإحكام 3/ 43، 44

(25) انظر: الإحكام 4/ 209

(26) انظر: الإحكام 172/4 – 178، وانظر: 53/7، 54، 71، 73

(27) انظر: الفصل 2/ 80 – 84 وما بعدها.

(28) الإحكام 5/ 129، 130، وانظر: 5/ 121، 125، 137، 138

(29) انظر: الإحكام 4/ 121

(30) انظر: الإحكام 1/ 107، 108، 119، 3/ 126

(31) الإحكام 7/ 53

(32) انظر: الإحكام 1/ 77، 2/ 31، 3/ 149، 4/ 77، 139، 140، 7/ 56 – 99، وما بعدها ثم 110، 153، 194 8/ 3، 9 – 22، 168، وانظر الفصل 1/ 39، 51، 2/ 148، 149، 158، 159، ورسائل ابن حزم 4/ 298، وعشرات المواضع الأخرى

(33) انظر: الإحكام 7/ 195، 196

(34) انظر: الإحكام 6/ 169، وما بعدها، ولا سيما 6/ 171، 172

(35) السابق 6/ 181، وانظر: 6/ 173، وانظر: كذلك 4/ 41، 202، وما بعدها 6/ 117، 118 في إبطال قول من قال: الإجماع هو إجماع أهل المدينة، انظر: 4/ 50، ومواضع أخرى.

(36) انظر: الإحكام 7/ 77، 78، 79، 81، 86

(37) انظر: رسائل ابن حزم 2/ 3/ 74، 75، 76، 79

(38) السابق 2/ 3/ 83

(39) رسائل ابن حزم 3/ 173

(40) الإحكام 2/ 309 وانظر: الرسائل 109/3

(41) رسائل ابن حزم 2/ 3/ 82، 83

(42) رسائل ابن حزم 2/ 3/ 200، 201

(43) انظر: السابق 2/ 3/ 201، وانظر: 194

(44) السابق 2/ 3/ 191، وراجع الفصل 4/ 35، 38، 39، والفصل 4/ 35، 38، 39، والفصل 2/ 121، 177

(45) انظر: الفصل 2/ 113

(46) الفصل 2/ 116

(47) انظر: مثلًا الفصل 15/3، 206/4، وما بعدها من صفحات كثيرة، منها 204/4، 215، 49/5، 53، وانظر: رسائل ابن حزم 2/ 3/ 193، 194

(48) انظر: الفصل 2/ 114، 215

(49) انظر: الفصل في مواضع كثيرة منها 1/ 116، 118، 122، 123، 131، 136، 138، 140، 141، 148، 162، 168، 171، 179، 186، 197 إلخ إلخ

(50) الفصل 1/ 127

(51) الفصل 219/1، وانظر كذلك إحدى الشتائم المقذعة 1/ 221، 222

(52) رسائل ابن حزم، رسالة التلخيص في وجود التلخيص 2/ 2/ 173

(53) رسائل ابن حزم، رسالة الرد على ابن النغريلة اليهودي 2/ 3/ 41

(54) السابق 2/ 3/ 67، وانظر: دولة الإسلام في الأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م، جـ 3، 419 – 423

(55) رسائل ابن حزم، رسالة التلخيص 2/ 3/ 176

(56) وفيات الأعيان 1/ 169، وانظر: 3/ 327، 328

(57) أي عن مذهبه الظاهري

(58) المغرب 1/ 355

(59) البداية والنهاية تحقيق: د/ أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، ط: (3)، 1987م، ج 12/ 98

(60) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: د/ علي عبد الواحد وافي، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006، جـ 3/ 949، وانظرها من 1374 بهذه الصفحة نفسها

(61) المغرب 1/ 355، وانظر: وفيات الأعيان 329/3، 330

(62) ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ضمن رسائل ابن حزم مجلد 1 ج 2/ 177، 178، وقد عُني في هذه الرسالة بذكر فضائل علماء الأندلس، في مجالات عديدة من فنون العلم، ليثبت أنه لم يقع فيما وقع فيه كثير من أهل الأندلس من جحود لمكانة علمائهم، وفضل أهل الفضل منهم.

(63) رسالة: مداواة النفوس ضمن رسائل ابن حزم مجلد 1 ج 1/ 348

(64) السابق: الموضع نفسه

(65) السابق 1/ 359، وذكر في هذا المقام غدْر أحد أصدقائه به بعد اثني عشر عامًا من الصفاء والمودة، ولكنه ينصح – مع ذلك – بألا يستعمل الإنسان سوء المعاملة حتى لا يلحق بذوي الشَّرارة من الناس 1/ 360

(66) رسائل ابن حزم 1/ 360

(67) السابق: رسالة في الرد على الهاتف من بُعْد 2/ 3/ 121، 123، 125، وقد ردَّ عليه ابن حزم ردًّا قويًّا يتكافأ مع هذا التهجم الشديد عليه وعلى علمه، وانتمائه النابع من استقلاله الفكري، المتحرر من الانتماء المذهبي.

(68) بالنثيا، أنخل جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د/ حسين مؤنس تصوير مكتبة الثقافة الدينية د.ت عن الطبعة الأصلية التي صدرت 1955، ص 216

(69) انظر: رسائل ابن حزم، رسالة: رد ابن حزم على ابن النغريلة اليهودي مجلد 2 / ج 3 / ص 41 – 70 ومقدمة هذا الجزء من الرسائل 3/ 7 وما بعدها إلى 19

(70) انظر مثلًا: الفصل 1/ 135، 152، 153

(71) انظر الآية رقم (8) من سورة الممتحنة.

(72) انظر: تقديم د/ إحسان عباس لرسالة ابن حزم في الرد على ابن النغريلة مجلد 2، ج 3، 16، 17، ثم انظر: 3/ 57

(73) مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 1/ 1/ 350

(74) السابق 1/ 1/ 338

(75) الفصل 4/ 178؛ ولعله قال: لا يلتزم ما ينتجه قوله

(76) انظر مثلًا: الإحكام 4/ 171، 183، 5/ 129، 7/ 78، 79

(77) انظر: الإحكام 2/ 122، ثم 6/ 117، 118، وانظر: مقدمة د/ إحسان عباس لرسائل ابن حزم 1/ 20

(78) الإحكام 2/ 120، وانظر: 2/ 128، ومقدمة الإحكام 1/ ز.

(79) الإحكام 3/ 153

(80) انظر: الإحكام 4/ 128، 129

(81) انظر أيضًا: رسالتان له، أجاب فيهما عن رسالتين، سئل فيهما سؤال التعنيف، ضمن رسائل ابن جزم مجلد 2/ جزء 3/ صفحات 74، 80، 81، 82، 83، وما بعدها.

(82) انظر: طوق الحمامة 1/ 282/1، 285، وضمَّن هذا في شعره، انظر: 1/ 301 – 306

(83) السابق 1/ 1/ 272

(84) السابق 1/ 1/ 273

(85) الفصل 2/ 113، وانظر: 2/ 116، ورسائل ابن حزم 2/ 3/ 120، 121، 124، 127، ومواطن أخرى كثيرة في كتبه ورسائله

(86) انظر: التقريب لحد المنطق، ضمن رسائل ابن حزم 2/ 4/ 120، 103

(87) السابق 2/ 4/ 99، 100

(88) السابق 2/ 4/ 100

(89) رسائل ابن حزم 2/ 4/ 101

(90) رسائل ابن حزم 2/ 4/ 319

(91) انظر: رسائل ابن حزم، رسالة مداوة النفوس 1/ 353 – 355

(92) السابق 1/ 1/ 346

(93) لكن ابن حزم يعترف بأن فيه عيوبًا أخرى ومن هذه العيوب: الإفراط في الغضب، والدعابة الغالبة، ومحبة الشهرة وبُعْد الصيت، وإفراط في الأنفة ومنها سوء الظن، بل منها كما يقول: وحقد مفرط قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره" لكنه لم يقدر على التخلص منه تمامًا، إلخ انظر: رسائل ابن حزم، رسالة مداواة النفوس 1/ 1/ 353 – 355 لكن هناك فرقًا بين طبيعة هذه العيوب التي نفاها عن نفسه وهذه التي أقر بوجوده فيه، ومع ذلك جاهدها حتى تغلب عليها.

(94) رسائل ابن حزم: التقريب لحد المنطق 2/ 4/ 341، ويمكن أن تقرأ: يَرُوض.

(95) رسائل ابن حزم، مداواة النفوس 1/ 1/ 354. وانظر لقول ابن عباس رضي الله عنهما: قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي، طبعة الحلبي 1961 جـ 1/ 326 وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: إدارة الطباعة المنيرية وينسب فيه قول مقارب لمجاهد تلميذ ابن عباس – وينسب مثل هذا القول أيضًا للإمام مالك بن أنس: 2/ 91 وانظر: البداية والنهاية لابن كثير، طبع بيروت بعناية د/ أحمد ملحم وآخرون 14/ 145

(96) رسائل ابن حزم، التقريب 2/ 4/ 337، 338.

(97) يقول ابن حزم: إن هذا الصنف من الناس قليل جدًّا؛ بل لا يوجد في الموجودات شيء أقل منه. انظر: رسائل ابن حزم: التقريب لحد المنطق 2/ 4/ 343.

(98) قارن ابن خلدون في حديثه عن ضرورة عناية المؤرخين فيما يذكرونه من الوقائع التاريخية بعلم كيفيات الوقائع وطبائع العمران وأحواله التي ترجع إليها الأخبار. انظر: المقدمة، طبعة وافي، مرجع سابق 1/ 282، 283، 285، 320، 325 إلخ.

(99) رسائل ابن حزم، التقريب 2/ 4/ 343، 344.

(100) الإحكام 1/ 20 ثم 1/ 25

(101) رسائل ابن حزم، رسالة التبيان عن حقيقة الإيمان 2/ 3/ 198، 199.

(102) رسائل ابن حزم، التقريب لحد المنطق 2/ 4/ 306، وانظر: 320، 321

(103) انظر: السابق 2/ 4/ 325، 326

(104) السابق 2/ 4/ 326

(105) السابق: 2/ 4/ 340، 341، ويلاحظ أنه دعا إلى الإنصاف – في هذا النص وحده – ثلاث مرات.

(106) انظر: رسائل ابن حزم، التقريب 2/ 4/ 338

(107) السابق، التقريب 2/ 336

(108) رسائل ابن حزم، التقريب 2/ 4/ 338

(109) الإحكام 1/ 20، 21

(110) الإحكام 1/ 74

(111) الإحكام 5/ 128

(112) انظر: رسائل ابن حزم، رسالتان 2/ 3/ 97

(113) الإحكام 1/ 76

(114) رسالة مراتب العلوم، ضمن رسائل ابن حزم 2/ 4/ 83، 84

(115) رسالة مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 1/ 1/ 401

(116) السابق 1/ 383

(117) انظر: السابق 1/ 383

(118) مداواة النّفوس، ضمن رسائل ابن حزم 1/ 1/ 380

(119) السابق 1/ 1/ 386

(120) مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 1/ 1/ 402

(121) انظر مثلًا: السابق 1/ 1/ 381، 402، 403

(122) السابق 1/ 1/ 399

(123) انظر: الإحكام 1/ 4

(124) مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم، انظر 1/ 1/ 357، وقد أمر الله تعالى عباده بذلك في الكتاب الكريم في مثل قوله – عز وجل – " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" – الآية (المائدة: 8) وانظر الآية (2) من السورة نفسها

(125) السابق 1/ 1/ 164، 165

(126) انظر: التقريب، ضمن الرسائل 2/ 4/ 341

(127) النظر: مداواة النفوس 1/ 1/ 399

(128) انظر: السابق 1/ 1/ 339

(129) انظر: السابق 1/ 1/ 338، 339

(130) انظر: مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 1/ 1/ 360

(131) السابق 1/ 1/ 362، 364، 367

(132) السابق 1/ 1/ 364، 365

(133) السابق 1/ 1/ 365

(134) طوق الحمامة، ضمن رسائل ابن حزم 1/ 1/ 256

(135) السابق 1/ 1/ 256

(136) السابق 1/ 1/ 210 وانظر: 211، 212

(137) انظر: مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 1/ 1/ 354، والنص من 355

(138) انظر نصًّا مهمًّا في هذا الشأن ذكره في طوق الحمامة 1/ 1/ 309، 310

(139) طوق الحمامة، ضمن رسائل ابن حزم 1/ 1/ 310